

دور اللغة والفنون الكتابية في نهضة الحضارة السبئية قبل الإسلام

أ. كاكري محمد

جامعة الجلفة

تمهيد

كانت الحضارة السبئية من بين أقوى الحضارات العربية قبل الإسلام والتي شددت انتباه المؤرخين العرب والأجانب منذ أمد بعيد، ولذا فإن أهمية هذا الموضوع تبدو في جوانب عديدة من مظاهر تلك الحضارة وذلك ما جعلني أكتب حول مدى حقيقة وأهمية مظاهرها المختلفة، وكانت الجوانب الفكرية إحدى أبرز مظاهر التفوق والنبوغ السبئي ومدى انعكاسه على مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والعمرانية والتجارية، وبالتالي فإن الإشكال المطروح هو مدى حقيقة النهضة الفكرية في دعائم تلك الحضارة، ومن هنا كانت الإجابة من خلال دور اللغة والخط والعلوم في نهضة السبئيين. ولذا قسمنا محاور الموضوع لأهمية اللغة والخط، ودور النصوص والنقوش في تجسيد وترجمة الفكر والإبداع السبئي، مع اعتماد مجموعة متنوعة من المراجع المتخصصة لمعرفة المزيد عن جوانب اللغة والخط والمختلف فنونهما إضافة للعلوم الرائدة في حضارة السبئيين قبل الإسلام.

المبحث الأول/ اللغة السبئية :

أولا/ اللغة السبئية عموما :

قليل أن قحطان هو أول من تكلم العربية ومعناه من أهل هذا الجيل الذين هم العرب العاربة من اليمنية (السبئية) عن العرب البائدة باليمن والجوار، ومنهم كان للعرب جيل آخر هم العرب المستعربة الذين تعلموا عن العربية ومنهم العدنانيون بالشمال .

ثانيا/ أصول اللغة السبئية وأقسامها وانتشارها :

(1) أصولها:

إن لغة اليمنيين والسبئيين خاصة كانت قرية من لغات أكثر الأمم تقدما لأن اللغات السامية كانت يومئذ لاتزال متقاربة لفظا ومعنى، فالسبئي والكلداني والآشوري والعبراني والحبشي والفينيقي كانوا يتفاهمون بلا واسطة لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من الفصحى حاليا، فكان العربي من حمير ومصر إذا جاء العراق لا يحتاج في مخاطبة الكلداني والآشوري لترجمان وكذلك إذا يمم فينيقية أو الحبشة فإنه يفهم لسان أهلها، وقد حدث ذلك مع سيدنا إبراهيم لما نزح من بلاد الكلدان نحو القرن 20 ق.م واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخاطب أهلها، وحدث مع بني إسرائيل في أثناء تيههم حوالي القرن 15 ق.م لمدة 40

(1) سنة في أعالي جزيرة سيناء وتخطبوا مع أهلها .

(2) أقسام اللغة السامية:

تنقسم اللغات السامية عموما إلى أربع مجموعات كبرى :

أ) مجموعة اللغات السامية الشرقية: وتشمل الأكادية والبابلية والآشورية بخطها المسماري.

(ب) مجموعة اللغات السامية الغربية الشمالية : وتشمل الكنعانية والمؤابية والفينيقية والعبرية والأوغاريتية والآرامية بأنواعها، آرامية النقوش خلال القرن 9 ق.م والآرامية الدولية في آشور وبابل وفارس خلال القرن 7 4 ق.م وآرامية العهد القديم والآرامية الغربية كالآرامية النبطية في نقوش مدائن صالح بالحجر والعلا بسلع في البتراء خلال القرن 1 ق.م والآرامية التدمرية ومنها نقوش تدمر بين القرون 1 ق.م 3 م، والآرامية اليهودية ككتابة الترجوم والتلمود الأورشليمي بين القرون 2 5 م والآرامية المسيحية كالتى استعملها نصارى فلسطين بين القرون 5 8 م، والآرامية الشرقية ومنها آرامية التلمود البالي بين القرون 4 6 م والآرامية الصائبة كالمندائية والمنذعية بين القرون 3 8 م والسريانية (2)

بين القرون 3 ت 13 م وهي لهجة آرامية قديمة نشأت في الرها قرب حدود سوريا .

(ج) مجموعة الغات السامية الغربية الجنوبية ومنها : اللغة العربية (العربية الشمالية بوسط وشمال الجزيرة العربية ومنها الفصحى ولهجاتها والصفوية واللحيانية والثمودية ومختلف اللهجات الحديثة والعربية الجنوبية كالسبئية والحمرية والحضرية والقنانية).

(د) مجموعة اللغة السامية في الحبشة ومنها : (الأثيوبية الجعزية وفروعها ولهجاتها مثل الأمهرية التيجرية والتيجرينية . ولعل هذا الإنتماء والتشابه في مناطق ومخارج وأصوات اللهجات ذات الأصل الواحد في الشرق القديم كان عاملا للتخاطب والتجاذب والتفاهم أكثر من أي عامل آخر . (1)

(2) إنتشارها:

تنتشر اللغة السبئية في الجنوب العربي ضمن مجموعة لغوية متشابهة تشكل مجموعة عربية جنوبية لوحدها متقاربة فيما بينها وهي من الغرب إلى الشرق : المعينية والسبئية والقنانية والحضرية ومنها لغات تعرف بالعربية الجنوبية، فالسبئية أكثر قرابة للعربية الشمالية والأثيوبية القديمة وهي اللغة الأقدم وقد سادت على جزء هام من اليمن الشمالي، وتتضمن العربية القديمة ملامح عديدة عن السبئية أي لغة وسيطة هي (السبئية العربية) يمكن قراءة وثائقها الأولى بالخط المسند.

واللغة السبئية وجدت بشكل مركز في اليمن الشمالي الشرقي على طول الإتصال مع الصحراء حيث مناطق الجوف ومأرب وبيهان وحضرموت والمضاربة المعينية كما استعملت من طرف ممالك نشان وكاميناو وحرام ومعين وعنابا في بلاد الجوف وفي سبأ وقناب وحضرموت، ويكتبون بالسبئية والقنانية والحضرية لأن تلك الممالك الكبرى (سبأ وقناب وحضرموت) فرضت سيادتها ولغتها على عدد كبير من قبائل وإمارات الجنوب العربي، كما أن الاحتلال السبئي الذي بدأ مع المكرب كرب إيل وتر الكبير قد أدى لتوسيع استعمال اللغة السبئية رغم تداخل اللغات القنانية والحضرية، إضافة لتبني الحميريين اللغة السبئية منذ توليهم قيادة العرش السبئي بشكل شعبي ورسمي منذ سنة 115 ق.م رغم أن لغة الحميريين كانت ذات ميزات وخاصيات مشتركة مع السبئيين كما يخبرنا نشيد قانيا (Qaniya).

وبقيت اللغة السبئية لوحدها لغة كتابة حتى نهاية حضارة السبئيين بالجنوب العربي، ولكن المؤشرات تقول أن السبئية بدأت تفقد قوتها منذ القرن 4 م لأن الحيريين استعملوا لغة سبئية ضعيفة، كما أن كتابها في العهد الحميري المتأخر قد بدؤوا بالتوقف، ومع توسع حملات الأحباش ثم الفرس على بلاد اليمن كانت اللغة السبئية تتراجع رونقا وقوة وقواعد،

(4)

لأن النخبة من اليهود كانت قد أبيت أوهاجرت والمكتبات قد أحرقت .

ثالثا/ قواعد اللغة السيئة :

حيث تتميز هذه اللغات بخصائص أساسية كوجود مقاطع صوتية غير مفخمة مثل حروف ش و ص ، أي وجود ثلاثة أحرف صفارية غير مفخمة محددة (ش = ʃ) و (س = s) و (ح = h).

مسند عربي	ا	ب	ت	ث	ح	خ	ج	ش	س	س	ر	ك	ن	ف	ق	ص	ض	ط	ظ	د	ذ	ز	ع
--------------	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---	---

(2) بعض الكلمات والأسماء والمفردات والتعابير :

المبحث الثاني / الخط المسند :

أولاً/ موقعه ضمن الخط السامي والعربي :

(1) الخط العربي المسند وأصوله:

223

والشمال، وتطور الخط الآرامي للكوفي ثم للعربي (حروف الآرامي ناقصة 22 حرفا) وربما اختار عرب الشمال الآرامية بعد سقوط ممالك الجنوب لسهولة ومرونته بدل المسند الهندسي (زوايا ودوائر) .

(ب) أو جاء الخط العربي من الحيرة المسيحية وكتب أهلها بالسرياني (خط الحيرة) والأنبار ثم إلى مكة .

(ج) أم أن الخط العربي والسرياني أصل واحد اشتق من الآرامي المربع .

(د) أو هو من الخط النبطي والنبطية لهجة كتب بها الأنباط نقوشهم حتى القرن 3 م وأصلهم عربي جنوبي هاجر شمالا .

(هـ) وقد يكون أصل الخط المسند كنعاني وإن كانت الحروف لاتنطوي على شبه ظاهري كبير بحروف الأبجديات السامية الشمالية وإنما تشبه الأبجدية الآثيوبية (خاصة دون سائر الأبجديات السامية المعروفة واللغة العربية الجنوبية أو مجموعة اللهجات التي تتكون منها قرية الصلة أيضا بالحبة لأن الحضارة الآثيوبية فرع من الحضارة العربية الجنوبية لأن الحبة سبق وأن استوطنها مهاجرون من الساحل اليمني) .

فالخط المسند كما الخط العربي من أصل سامي واحد وليست بينهما أية علاقة، وأصل الحروف المسندية السبئية سورية من الأوغاريتية التي كانت متبوعة بالفينيقية والاعريقية والآثينية والعبرية والآرامية Aramien والعربية وأصبحت بخاصية سامية في الكتابة الجنوبية مع الآثيوبية المشتقة منها .

(2) الخط المسند (تعريفه وتقنياته):

المسند خط حميري وهو موجود بكثرة في الحجارة والقصور وله صور كثيرة وهم يفصلون بين كل كلمتين بصفر لئلا يخلط الكلام وصورة الصفر عندهم كصورة الألف العربي والحرف تتعدد صورته، وتكتب حروف العربية الجنوبية من اليمين إلى الشمال أو العكس مع أفضلية كتابتها من اليمين لليساو وهذه كانت حالتها حتى قبل المكرب كرب إيل وتر الكبير، وفي تدوين النصوص فإن أسطر كثيرة يتغير فيها المعنى وذلك بإعادة الكتابة مقلوبة أي بطريقة البوستروفيدون وهي الطريقة التي تقرأ فيها الأسطر عكسا وطرذا وقد بدأت الكتابة السبئية نهائيا من اليمين لليساو.

(3) تطوره وانتشاره:

فالخط المسند هو قلم العربية الجنوبية عموما وهو من أبرز وأقدم الأقلام السامية واستعمله المعينيون أولا ثم السبئيون الذين تفننوا فيه، وبفضله حفظت الكتابات السبئية أعمالهم خاصة في المعابد والحدان والنصب، كما انتقل هذا الخط لشمال الجزيرة العربية (الحجاز) ومناطق المستعمرات المعينية والسبئية بانتقال الجنوبيين تحت تأثير الهجرات والتجارة وغيرها .

ورأى فلي أن الكتابة بالخط (الأبجدية = الألفباء) نشأت في الجنوب العربي ثم انتقلت لفنقيا وسائر بلدان شمال الجزيرة العربية ومنها منطقة سينا (الألف باء السينائي) .

ومازال الخط العربي الجنوبي (المسند) ببلاد المهرة وجزيرة سوقطرة إضافة لمدونات الآثار والنقوش العديدة المكتشفة

ببلاد اليمن والمراكز التجارية اليمنية بحضرموت وبلاد الأنباط وغيرها (8) ويلاحظ أن هناك نصوصا ونقوشا سبئية مدونة

(9) بالخط المسند ترجع للقرن 8 ق.م .

ثانيا/ استعمالاته وفنياته : تتضمن أبجدية الخط المسند بين 28 29 حرفا، ولكل صوت شعار وخطا للتفريق بين الحروف (10) ، وكتب اليمينيون القدامى عوما بكتابات عربية جنوبية (سبئية وقتبانية ومعينية وحضرية وحميرية) وبالجوف ونجران والفاو.

فالحروف المسندية الصوتية في آخر الكلمة تكون طويلة مع المد (â , î , û) ، أما المعينيون والحضارمة فاستعملوا حرف (h) بدلا من حرف (a)، كما أن خطوط اللغات السامية كالسبئية كانت تكتب من اليمين لليسار وبعضها القليل اتبع خطة الدورات حيث يبدأ السطر التالي تحت نهاية السطر الأول (11).

فالخط السبئي هو الذي ساد سائر الخطوط السامية في النقوش كما يعرفه علماء الخط أي المنقوش على أعمدة يستند إليها وهو من أكثر الأقلام السامية انتشارا قبل الإسلام، ويعتبر الخط المسند من أقدم الخطوط السامية وقد استعمله سكان الجنوب العربي باليمن (سبأ ومعين وغيرهما) كما استعمله في شمالها الكنعانيون منذ ما قبل الألف الأولى ق.م، أما الأقلام المتفرعة عن المعينية والسبئية كالأوسانية والقتبانية والحضرية ثم الحميرية وكذلك ما انتشر في بلاد أكسوم وسواحل إفريقيا وجميعها متفرعة أو متصلة بلغة معين وسبأ (12).

أما فن الكتابة فقد روعي فيها الجمال والتنسيق في الخط، فرونق وتناسق الخط السبئي الحميري تجلى أكثر في النقش الذي عثر عليه المستشرق النمساوي إدوارد غلازر محفورا على جدار خارجي لمعبد صرواح (13). فالسبئيون كتبوا بطرق فنية وهندسية متقنة وهناك العديد من الكتابات الفنية كتلك الكتابة بالخط السبئي المسند على نصب تخلد ممارسة شعائر الحج نهاية القرن 8 ق.م (14).

الخاتمة

كانت الجوانب الفكرية والعلمية من بين أهم عوامل النهوض الحضاري والرقى الاجتماعي للأمم وذلك ما عرفتة الحضارة السبئية حيث تركت معالمها اللغوية وحروفها الهجائية أثرا رائدا في توسيع التعامل التجاري والفن المعماري، وكان للخط السبئي أثرا عميقا في حياة السبئيين ومعاملاتهم تجاه المعتقدات التي زخرت بها أفكارهم وممارساتهم وأهتهم ومعابدهم، ومن خلال مجموعة النصوص والنقوش المكتشفة حديثا من قبل الأثرين والرواد الغربيين تبين مدى رقي الزخرفة والنقوش في ثرائها وقوة السبئيين وتنافسهم في أنجاز الهياكل والبناءات المعمارية لأغراض دينية وزراعية كما هو الحال في سد مأرب، ومعبد بلقيس، وقصر غمدان، وقد انعكس نشاطهم الفكري والخطي في تنظيم الأساليب الزراعية واحتكار الأسواق والقوافل وبناء المراكب ومراكز العبور وسك النقود واختراع المقاييس والمكاييل.

كما شجع ذلك على نهضة فنية انعكست في تنوع الحلي والألبسة والأسلحة كالسيف اليماني وإنتاج التوابل والعمود كاللبان، ونتيجة لكل ذلك تعاظمت ثرواتهم كما وصفها المؤرخون الكلاسيك من أمثال استرابون وبلينيوس، إضافة لوصف المؤرخين العرب المسلمين من أمثال العلامة ابن خلدون والمسعودي والحميري والهمداني لمحاصيلهم ونظام ملوكهم وقوة جيوشهم وريادة لغتهم بين اللغات السامية.



الخط المسند يتألف من 29 حرفاً أبجدياً

ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر
هـ	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	ف
ق	ك	ل	م	ن	هـ	و	ي	غ	ف
واحد	إثنان	ثلاثة	أربعة	خمسة	ستة	عشرة	خمسين	مائة	ألف
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠

الهوامش :

- (1) جرجي زيدان، تريخ التمدن الإسلامي، منشورات دارمكتبة الحياة ، بيروت، المجلد 1، ج.1، ط. 2، ص. 17.
- (2) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، كتاب النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس، 1988، ص. 20.
- (3) نفسه.
- (4) حسن ظاظا، المجتمع العربي القديم من خلال اللغة، ص . 178 ؛ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المرجع السابق ص. 20.
- (5) Christian Julien Robin, Les Royaumes Combattants 8em A.C, Yémen Au Pays De La Reine De Saba, Flammarion. Institut Du Monde Arabe, Paris, 1997, P. 84.
- (6) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص. 178 ؛ عدنان ترسيصي، بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى "اليمن العربية السعيدة"، ط. 2، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1990، ص. 281.
- (7) جواد علي ، أديان العرب قبل الإسلام ، ص . 110 .
- (8) عدنان ترسيصي، المرجع السابق ، ص ص . 105 106 ؛ ص . 279 .
- (9) François Bron, Naissance et Destin de L'alphabet Sudarabique, Yémen Au Pays De La Reine De Saba, Flammarion. Institut Du Monde Arabe, Paris, 1997 , P. 56.
- (10) Christian J.R, Une Civilisation de L'écriture, Yémen Au Pays De La Reine De Saba, Flammarion. Institut Du Monde Arabe, Paris, P.79.
- (11) عدنان ترسيصي، المرجع السابق، ص. 108.
- (12) نفسه، ص. 105.
- (13) نفسه، ص. 105.
- (14) Walter W.Müller, La Religion, Yémen Au Pays De La Reine De Saba, Flammarion. Institut Du Monde Arabe, Paris, P. 122.